الباب الثاني عشر

فترة الكمون [1]

يتم التطور الذى تكلمنا عنه فى الغريزة الجنسية فى حوالى سن الخامسة أو السادسة ، ويدخل الطفل بعد ذلك فى مرحلة هادئة من حياته يطلق عليها اسم فترة الكمون — وتستمر فترة الكمون حتى بدء المراهقة .

وهذه المرحلة كما يدل عليها اسمها تتميز بالخلو من كثير مما يظهر فى المرحلة السابقة من علائم التمرد والثورة والصراع عند الطفل .

وعلنا يدرك الفرق الكبير بين الطفل فى السنوات الخمس الأولى من حياته ، وبينه فيما بعد ذلك وقد روض وأصبح سهل القياد ، مطواعا ، خاضعا لما يفرض عليه . ومن الغريب أن الناس قد اختاروا هذه السن من زمن طويل ، لبدء تعليم الطفل ، فكأنهم يتحرون فرصة هذه الفترة الهادئة فى حياته ليبدءوا فى مهمة التعليم الشاقة .

وإذا أردنا أن نكون صورة واضحة للفرق بين الحالتين ، فلنتذكر الطفل الرضيع وانفعالاته الجياشة بالرغبة والخوف : والألم والحب ، ولنتذكر أن انفعالات الطفل أقوى بما لا يقاس من انفعالاتنا ، ولا يشبهها فى حياة الراشدين من الناس ، إلا المخاوف العنيفة ، كالكابوس الذى يأتى النائم . وذلك لأن الطفل فى مبدأ حياته ، حينما يكون ضحية الخوف أو الحرمان ، يشعر أن ذلك الخوف وهذا الحرمان ليس لهما نهاية تنتظر ، وليس بعدهما أمل يرجى ، لأنه ليس فى تجربته مايؤدى به إلى عكس هذا الاعتقاد ، ويشب الطفل قليلا قليلا ، وتزيد مطالبه من الحياة ، ويزداد إدراكه لرغباته ، وتمر به ساعات هناء وسعادة تجاب فيها هذه المطالب ، ولكن تمر به ساعات شقاء يحرم فيها مما يرغب فيه ، بل ويفرض عليه أن يقوم بأشياء لا يرغب فيها ، ويرى حوله قيودا ونظما

---

(1) Latency Period

لا تمت إلى رغباته ، ولا إلى ادراكه بصلة ما . فيثور ويتمرد ، ويحاول الفكاك من هذه الحال ، وفى أثناء ذلك تجيش نفسه بعواطف الحب والكره والغيرة ، والرغبة فى الانتقام ، وتنمى الميول المخالفة ومنافسيه ، ومن منا لا يذكر ثورات الغضب الشديدة التى تمر بالطفل وهو فى حوالى السنتين أو الثلاث ، من المرر ومن منا لا يذكر صراخ الطفل وبكاءه ساعات طوالا ، بكاء الذليل والثورة إذا أهمل أمره ، وإصراره على الامتناع عن تناول الطعام ، وتعمله للجوع . وهيهات أن يكون هناك أثر لما تصنع الأم أو الأب عند ذلك من رجاء أو تهديد أو ترغيب ، كل ذلك يذهب هباء ، والطفل ينظر وهو جامد ، وقد أقفل فمه ورفض الطعام.

من هذا المخلوق الثائر ، الحانق الغاضب ، الغيور ، الأنانى ، ينشأ الحدث السهل القياد الذى تراه فى المدرسة الابتدائية .

ذلك أنه قد دخل فى دور الكُمُون الذى "تكمن" فيه النزعات إذ تدخل فى دور هدوء وقتى ، وتقل مظاهر الرغبة والصراع فى نفس الطفل ، ويصبح قادرا على التكيف الاجتماعى ، فهو يصغى لغيره ، ويعرف شيئا مما له وما عليه ، ويرغب فى التعلم ، ويصبر على بعض المكاره ، ويستقل بنفسه بعض الاستقلال

وكل ذلك نتيجة لما بذله الوالدان فى تهذيب الشرير الصغير وترويضه ، فقد استمرا معه بالقهر حينا وباللين أحيانا ، وبالحزم دائما حتى وصلا بنزعاته الثائرة إلى هذه الحالة من الهمود والخمود ، ولا شك فى أنهما قد كانا عاملين فى اعلاء بعض هذه النزعات ، وفى تمهيد الطريق لتكوين شخصية الطفل .

ولكن الغريب أن الطفل يفقد شيئا هاما فى أثناء هذا التكوين ، فمن منا لا يذكر الطفل ذا الثلاث السنوات أو الأربع أو الخمس ، ويذكر حيويته الفائقة ، ومعينه الذى لا ينضب من الحيل واللطائف ، وثروة خياله التى لا تفنى ، بل وفوق هذا وذاك ، بعد نظره ، ومنطقه الذى لا يعرف المواربة ، والذى يبدو فى أسئلته وإجاباته . هذه "الاصالة" وهذه "الحكمة" وهذه "الحيوية" كثيرا ما تفقد مع عوامل الغريزة .

وهكذا نجد أننا نخسر كثيرا إذ نخلق من الشيطان الصغير "تقى" طيبا ، لأنه يخسر مع شيطانيته كثيرا من حسناته ، ويكتسب مع الطيبة شيئا من الركود والتفاهة .

وذلك لأن العقبات التى نضعها فى طريق تفكير الأطفال، والقيود التى نحيط بها حيويتهم، وأصالتهم، هذه العقبات والقيود، تنسحب إلى نشاطهم العام وحيويتهم العامة، وقدرتهم على العمل والابتكار.

وبعد انتهاء هذه الفترة، تبدأ الفترة التالية — وهى فترة المراهقة — وفيها يعاود الطفل المرور على المصاعب النفسية التى سبق له أن مر بها فى الطفولة، فتبدو تلك المصاعب التى ظلت كامنة فترة من الزمن، فى صورة جديدة، ولكنها مبنية على الصورة القديمة، كالكتاب الذى تختلف طبعته الثانية عن طبعته الأولى، ولكن يبقى بين الطبعتين شبه لا يخطئه القارئ.

فالمواقف الانفعالية التى دار حولها الصراع فى طفولته، تبقى نواة للاضطراب. فإذا تكررت هذه المواقف، أو مايشبهها — واللاشعور يرى التشابه حتى فى العرض الطفيف كما قلنا — فإنها تنفجر ثانية، وتسبب له متاعب نفسية كبيرة. ومن المواقف المتكررة فى العادة، موقف الإبن من أبيه، إذ يكون مايبدو من الأب من التحكم، وما يبديه الإبن من التحدى، مشوبا بعنف الانفعال القديم. وعلى ذلك تكون فترة الكمون مرحلة هدوء بين مرحلتى الثورة العنيفة فى حياة الطفل. وكأن الطبيعة تعطى للغريزة فترة للاستجمام، استعدادا لمطالب الغريزة الجنسية الناضجة، بعد أن مرن الطفل فى بدء حياته على الطبعة الأولى من هذه الغريزة.

ففترة الكمون إذن جسر يصل بين العهدين، ويحمل فى باطنه بأمانة كل ما أخذه من العهد السابق ويوصله إلى العهد اللاحق كأن لم تكن هذه سوى فترة استجمام بينهما.

والصورة العامة للطفل فى دور الكُمون صورة "ناضجة" تشبه من بعض الوجوه صورة الرجل الذى جاوز فترة المراهقة ودخل فى دور الاستقرار.

فهو أقل أنانية وأقل عنفا فى انفعالاته، يهتم بما هو خارج نفسه، فيتوجه إلى الأشياء والأشخاص ويوثق العلائق بينه وبين محيطه الخارجى. وعلاقته الآن ليست كعلاقته عند ما كان طفلا، إذ أن الأخيرة علاقة من جانب واحد، علاقة هو مركزها، والمحيط الخارجى له وظيفة واحدة هى إجابة رغباته، فإذا قصر فى ذلك فهو مكروه. كان مبدأ اللذة هو العامل الأساسى فى علاقاته هذه. أما الآن فقد بدأ جانب آخر من هذه العلاقة، جانب العطاء فى مقابل

الأخذ ، وبعبارة أخرى بدأ الطفل يطبع بالصبغة الاجتماعية التي يتناول فيها الفرد مع المجتمع .

كذلك يبدأ الطفل في فترة الكمون في أن يلتقي أفرادا يكونون له بمثابة الآباء بحكم مركزهم ، أو علاقتهم معه ، كالمعلمين ومن إليهم .

وعلاقته بالأب في منشأ الحياة علاقة معقدة تضطرب فيها المحبة والكراهية وتتصارعان ، أما الآن فقد تغلبت المحبة ، وطوردت الكراهية ، حتى انحدرت إلى اللاشعور ، وأصبح سلوك الطفل وكأن له جانبا واحدا هو جانب المحبة والطاعة ، بل إن المحبة تصبح أشبه بالواجب ، منها بالعاطفة ، ولا شك في فتور علائق الأبناء مع آبائهم في هذه الفترة وميلها إلى أن تصطبغ بصبغة الواقعية ، وتنفصل عن الصبغة (الرومانسيه) التي تبدو بها في الطفولة ، والتي تميز بعد ذلك محبة المراهق .

ويبدو أنه من اليسير في فترة الكمون أن تنتقل سلطة الأب إلى غيره كالمعلم ومن إليه ممن يشرفون على الطفل ، بل وإلى أي شخص يعينه الأب أو الأم دائما كان أو مؤقتا ، على حين أن هذا الانتقال في الطفولة الأولى أمر يكاد يكون متعذرا ، ولا يحدث إلا ضد كثير من المقاومة .

بل إن الطفل يقوم بنفسه بدور الرقابة على نفسه فهو يتبع الأوامر والنواهي لا في وقت وجود الوالدين فقط ، كما كان يفعل وهو صغير ، بل إنه غالبا يتبعهما وهما بعيدان عنه ، وغير قادرين على مراقبته ، فيقوم هو نفسه بهذه المراقبة ، ومن هذا الطريق تتكون الأنا العليا كما ذكرنا ، فيصبح الطفل وفي داخله عناصر تعمل على كبح جماحه .

ويمكن تلخيص الفرق بين الفترتين في كلمات السيدة (آنا فرويد)[1] كما يأتي :

"إن العلاقة بين الطفل وأول معلميه (الأبوين) علاقة بين عدوين متضادين فما يريده الطفل لا يريده الوالدان ، وما يريده الوالدان لا يريده الطفل ، والطفل يصر على متابعة أغراضه بكلية نفسه وبحماسة غير متجزئة . ولا يجد الآباء أمامهم طريقا غير استخدام القوة لإرغام الطفل على الإذعان لمطالبهم . وتستمر هذه المعركة التي لا تتكافأ فيها القوى ، والطفل في غالب الأحيان هو الخاسر ، لأنه ضعيف الحول بجانب أبويه .

(1) Anna Freud : Psychoanalysis for Teachers, 1931 p. 87.

أما فى المرحلة التالية من عمره — فترة الكمون — فالموقف غير ذلك بالمرة ، فالطفل الذى يواجه مهذبيه — أبويه والمدرسين — لم يعد مخلوقا تعمل نزعاته فى اتجاه واحد ، بل لقد انقسم على نفسه ، وحتى لو كانت "أناه" لا تزال تتابع أغراضه الأولى ، فإن "أناه العليا" — وريثة خلق الأبوين — تكون دائما فى صف المهذب . فكأن المهذب أصبح له حليف فى نفس الطفل . وهذه الحقيقة ذات أهمية تربوية فائقة جدا ، إذ أنها تتيح لنا أن نوجه الطفل الوجهة الصالحة بلا ضرورة لاستخدام القهر فى هذه السن ، مادام فى طاقتنا أن نلجأ إلى هذا الحليف . ويكون من المستحسن إذن أن (نقويه) ، بدل أن نضعفه بتصرفاتنا ، والذى يؤدى إلى تقويته ليس هو القهر بل هو الأخذ بيد الطفل برفق وحزم .

وعلى ذلك فالمدرس أو الأب يخطئ خطأ كبيرا إذ يستمر على معاملة الطفل على أنه عدو ، تلك المعاملة التى قد[1] تجد ما يبررها فى الطفولة الأولى" .

وكل ذلك يسهل خروج الطفل من محيطه العائلى ، وانتقاله إلى محيط المدرسة . خصوصا وأن اهتمامه لا يصبح مركزا على غرائزه ونزعاته فى صورتها البدائية ، بل إن قدرا من الإعلاء يكون قد حدث ، فيبدأ الطفل يهتم بأشياء يصادفها فى طريقه ، فيتابعها بكثير من الاهتمام ، بل إنه يهتم بمعظم ما يرى أن الكبار يطلبون منه الاهتمام به ، فيتعلم القراءة والكتابة وأشياء مثل جداول الضرب وما اليها .

وعلى ذلك تكون العلاقة بين الحدث وبين أبويه ومعلميه وغيرهم علاقة تصطبغ بصبغة واقعية ، ويغلب أن تكون صبغتها العاطفية معتدلة .

فالأب لا يصبح ذلك المخلوق القوى الكامل ، والأم لا تبقى أجمل من فى العالم .

وسلوك الطفل فى هذه الفترة لا يكاد يُرى فيه ذلك الطابع العنيف الحار الذى يوحى باتجاهاته الجنسية . فما أعظم الفرق بين ضمة الطفل الصغير لأبيه أو أمه وتقبيلهما ، وبين تحية الأبن الأكبر منه تحية رسمية مصحوبة بقبلة على الوجنة أو على اليد .

---

(١) المقصود هنا أن موقف الطفل العدائى فى بدء طفولته قد يثير عند الأب أو الأم نزعات عدائية أو انتقامية ضده ، فهو احتمال نفسى وليس تبريرا تعليميا .